# الجغرافيا عند المسلمين

## والشريف الادريسى(*)

السلام عليكم • أحييكم ، وأشكركم على اجابة دعوة المجمع لسماع محاضرتى فى هذا المساء عن ( الجغرافيا عند المسلمين ومقام الشريف الادريسى بين الجغرافيين الاسلاميين ) : هذه المحاضرة التى اخال أن ما سأورده فيها هو غير بعيد عنكم علمه ، ولعله لايستحق ماكلفكم من جهد الطريق • غير أن ذلك هو جهدى ومبلغ علمى ، لم أظفر بأكثر منه ، وبحسب المقل جهده ، ولن يستطيع امرؤ أن يعطى أكثر مما يملك •

على أننى — ان لم أوفق أن أضمن محاضرتى أشياء غير غريبة عنكم — أرجو أن لا أحرم التوفيق فى شىء واحد ، ذلك هو اثارة ( الشعور بالعزة القومية ) فى أنفسكم ، بما أوجب البحث العلمى أن أعرض له : من صنيع الأجداد العظماء فى بناء الحضارة الانسانية ، والمجد الباذخ الذى شادوه لأنفسهم وللعالم فى ميادين الحياة ، بما كانوا يتحلون به : من علو الهمم ، وطموح العزائم ، وتعشق المغامرات ، والدؤوب على تذليل الصعاب والعقاب التى تعترضهم فى سبيلهم الى امتلاك أعنة السيادة المطلقة وحيازة الشرف الرفيع •

والرجاء فى عرض هذه الذكريات العذبة أن تنفع فى باب اعتبار الحفدة والأبناء بمحاسن صنيع الأجداد ، وأن تؤدى اثارتها واسماعها للجيل الناشىء الى الانبعاث فى سبيل تلك العظمات والخلائق المسلمة من كل عار ومأثم

ولست أذكر الماضين مفتخرا  لكن أقيم بهم ذكرى لمدكر

وبعد ، فانى قد صاحبت (الشريف الادريسى) أكثر من عام فى نقل (خارطته)(١) التى نسقها ( المستشرق الألمانى كونراد ملر ) ، وفى تحقيقها برجوعى الى أصول كتابه ( نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ) والى كتب أئمة الجغرافيين الاسلاميين • فلما أردت

---

(*) محاضرة ألقاها الأستاذ محمد بهجة الأثرى مساء ١٩٥٠/٥/٢٧ بدار المجمع العلمى العراقى •

(١) وشاركنى فى نقلها الدكتور جواد على أمين سر المجمع •

أن أهيىء بحثى عنه ، لم أجد بدا من تحديد مقامه العلمى بين الجغرافيين الاسلاميين ، فاقتضى ذلك البحث فى الجغرافيا عند المسلمين وأصالتهم فى مقامهم العالمى فيها فى الفترة الطويلة بين عهود اليونان وعهود هذه الحضارة الأوربية ، فمضيت فيه ، فاذا نفس الكلام يمتد ويطول ، وأنا أرده الى الاختصار والايجاز مراعاة لوقت المحاضرة ، حتى استطعت أن أركزه ، وأسوى منه هذا الكلام الذى ستسمعونه .

أما بحثى فى الشريف الادريسى و « خارطته » ، فلا مندوحة لى من ارجائه الى وقت آخر يتسع له ان شاء الله .

*
**

قضت طبيعة الجزيرة العربية تلك الطبيعة الضنينة القاحلة على سكانها البداة بضنك العيش وشدة العوز والفاقة ، فاستفزهم ماهم فيه من ذلك الى الرحلة والتجوال فى مواسم السنة كلها ، ملحين فى تتبع الغيث ، وانتجاع مواطن الكلأ والماء ؛ فأوغلوا فى بطون الأودية ، وجابوا السباسب والقفار الى منابت الشجر ، مشرقين ومغربين ، متهمين ومنجدين ، سدا لخم حاجاتهم ، وارتيادا لما يقوم بمؤنهم ومراعى ابلهم وسوائمهم .

فاكسبهم ذلك علما واسعا عجيبا بكل بقعة من بقاع وطنهم المتسع الأرجاء ، الممتد من ريف العراق الى أقاصى اليمن وبحر الهند ، ومن البلقاء وبحر القلزم الى بحر عمان ، كما دلت على ذلك أخبارهم ، وزخرت به أشعارهم من أسماء الأماكن والأودية والجبال والبقاع مما لانظير له فى أشعار أمة أخرى .

وقد بلغوا من الاهتداء فى البر والقفر أنهم كانوا يتعرفون أحوال الأمكنة ، من غير دلالة عليها بالأمارات المحسوسة دلالة ظاهرة أو خفية ، بقوة الشامة فقط ، فيستدلون على البقاع ، وهم فى بطون الفلوات ، بسوف ترابها ، أى شمه ؛ ليعلموا أعلى قصد هم أم على غير قصد ، أو يستدلون عليها برائحة بعض النباتات فيها ، أو بحركة حيوان مخصوص ، كما يستدلون بمثل ذلك على وجود الماء فى بطن الأرض . وما برحت هذه الظاهرة مشهودة عند العرب الرحل فى أيامنا على نحو ما تأدى الينا من بينات التأريخ وشواهد الشعر .

ذلك هو شأن سكان الصحراء من العلم بالأمكنة والبقاع .

أما سكان الحواضر والقرى ، كأهل مكة والطائف ويثرب ، فقد تجاوز علمهم بالبلدان الى ماوراء البوادى العربية ، الى الحبشة واليمن والشام والعراق وغيرها مما بلغوا برحلاتهم ، فقد صح أن العرب كانوا على اتصال سياسى بمن حولهم من الأمم

كالفرس والروم ، وأن منهم أناسا أصحاب تجارة كانوا على اتصال اقتصادى بمجاوريهم ، يرحلون اليهم فى تجارتهم ، ويلابسونهم فى شؤون المعاش ، « ويقتنون الأملاك والضياع ، وينزلون البلاد المجاورة كأن تلك البلاد أجزاء متممة لبلادهم على اختلاف بينهم وبين ساكنيها فى الطباع والألسن » ، « واستولت قريش على التجارة فى الجاهلية ترحل فيها رحلتين : رحلة الشتاء نحو العباهلة من ملوك اليمن ونحو اليكسوم فى أرض الحبشة ، وأخرى نحو الشام وبلاد الروم فى الصيف » ، على نحو ما جاء فى السورة المعروفة : ( لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف ) . « والايلاف شىء كان يحمله هاشم لرؤساء القبائل من الربح ، ويجعل لهم متاعا مع متاعه ، ويسوق اليهم ابلا مع ابله ، ليكفيهم مؤونة الأسفار ، ويكفى قريشا مؤونة الأعداء ، فكان المقيم رابحا ، والمسافر محفوظا » .

ولا أشك فى أن من العرب قبل الاسلام تجارا وملاحين تمرسوا بركوب البحار الى البلاد النائية ، فركبوا البحر الأحمر الى مصر وبلاد الحبشة ، وركبوا بحر عمان والبحر الهندى الى شواطىء فارس وحواشى بلاد الهند ، يصدرون اليها ، ويستوردون منها ، حتى صح لبعض شعرائهم أن يفتخر بكثرة سفن قومه فى البحر فيقول :

ملأنا البر حتى ضاق عنا ... وماء البحر نملؤه سفينا !

ولولا صلتهم هذه بالبحر ، واصطناعهم له فى مرافقهم ، لما سهل على شاعر آخر ، وهو طرفة بن العبد ، أن يصف السفينة فيبدع فى الوصف والتشبيه ، ولا ينسى الى ذلك أن يسمى مكان بنائها وبناءها ، فيقول :

كأن حدوج المالكية غدوة ... خلايا سفين بالنواصف من ( دد )
عدولية أو من سفين ابن يامن ... يجور بها الملاح طورا ويهتدى
يشق حباب الماء حيزومها بها ... كما قسم الترب المفايل باليد

والخلايا : هى السفن العظام ، واحدتها خلية . وعدولية : منسوبة الى عدولى ، وهى قرية بالبحرين . وابن يامن : كان ملاحا من أهل البحرين .

ومن أجل هذا اكتسب هؤلاء معرفة بالأقطار المجاورة ، وعلما بالمسالك والممالك لاغبار عليه ، على قدر ما انتهت اليه عزائمهم ، ووقفت عنده مصالحهم ؛ وهو ميراث ورثه الخلف من السلف ، وظهرت آثاره فى عهود التدوين كما سيأتى الكلام عليه .

*
* *

ولما نجم الاسلام فى العرب ، وكان هدفه أن ينتظم هذه الأرض من مشرقها الى

مغربها ، وكان تحقيق هذا الهدف لايتم الا بأن يحبب اليهم الضرب فى الأرض ، والابعاد فى الرحلة عن الأهل والوطن برا وبحرا ، جهادا فى سبيل الله ، واعلاء لكلمته . . أذكى القرآن العزائم فى معارض مختلفة ، ليحملها على اقتحام أجواز القفار ، وأواذى البحار ؟ ذلك لأن النفوس لاتزكو بالقعود فى الرحال ، والمطالب الجسام لاتنال بالركود على حال من الأحوال ، وانما تزكو النفوس وتصلح بالتنقل والارتحال ، للاطلاع على الغرائب ، والاستطلاع للعجائب ، وكشف الجديد من المشاهد والملامح والصفات ، كما تنال الآراب ، باستسهال الهمم للصعاب والعقاب ، وانبعاث العزائم الى تجشم خطيرات الأمور ، والسعى فى تذليل كل شاق عسير

ألم تعلمى أن الثواء هو الثوى وأن بيوت العاجزين قبور ؟
وأن خطيرات المهالك ضمن لراكبها أن الجزاء خطير ؟

وآيات القرآن التى أذكت العزائم فى معارضها المختلفة للضرب فى البر وركوب البحر ، ليست بعيدة ممن يستصبحون بأنوار كتاب الله ، ويقبسون أزوادهم الروحية من مثله العليا !

من من المسلمين لايستذكر آيات الدعوة الى السير فى جوانب الأرض ، ذات الطول والعرض « أو لم يسيروا فى الأرض ؟ » ( ٣٠ – ٩ ) . « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا ، فامشوا فى مناكبها ، وكلوا من رزقه ، واليه النشور » ( ٦٧ – ١٥ ) . « قل : سيروا فى الأرض ، ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين » ( ٦ – ١٢ ) . « أفلم يسيروا فى الأرض ، فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ؟ فانها لاتعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » ( ٢٢ – ٤٦ ) .

ومن من المسلمين لايتذكر آيات الدعوة الى ركوب الجوارى المنشآت فى البحر كالأعلام ، للانتفاع مما فى البحر من لحم طرى يؤكل ، وحلية تلبس ، وخير يفاد ؟ ومما يؤدى اليه ركوبه من الاتصال بالعالم ، ومعرفة البلاد والعباد ، وعليها يكون قيام العمران ؟

« الله الذى سخر لكم البحر ، لتجرى الفلك فيه بأمره ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون . وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه ، ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » ( ٤٥ – ١١ ) . « وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون » ( ١٤ – ١٥ ) . « ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر ، لتبتغوا من فضله ، انه كان بكم رحيما » ( ١٧ – ٦٧ ) . « وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام »

( ٥٥ - ٢٤ ) .

ان هذه الدعوة القرآنية الى الانتشار فى العالم المعمور ، بتحبيب الضرب فى الأرض ، وركوب البحار ، قد وافقت من العرب طبيعة مواتية ، واستعدادا موروثا كسبوه من هذا التطواف الدائم فى مواطنهم ، والرحلة الى البلاد المجاورة وغيرها ، على نحو ما وصفت قريبا .

فما ان استجابوا الى الاسلام ، وأنشأوا دولته ، وحركتهم حوافز نشره الى الفتح ، حتى انبعثوا الى أكناف الأرض جهادا فى سبيل الله ، ونشرا لدينه ، فأوغلوا فيها شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، وركزت جيوشهم الغازية أعلامها الخفاقة شرقا على نهر الجنجس فى الهند وتخوم الصين ، وغربا على نهر اللوار ومعابر الألب . جابوا اليها بطون القفار ، وتوغلوا فى الجبال ، وركبوا متون البحار ، فى تأريخ حافل بالعجائب والمدهشات . واستتبع هذا الفتح الواسع امتزاجا عاما بين الشعوب ، ونشاطا عظيما فى الحياة شمل العالم المعمور كله ، ولم يسبق له مثيل فى التأريخ .

كان العالم نائما فأيقظه العرب بترنيمة التوحيد ، ونوروا بصيرته بالاسلام ، وبصره بنور الحياة . هدوه ، وآخوه ، وهذبوه ، وعلموه الحق والعدل والمساواة ، وما رأينا قبلهم ولا بعدهم أمة فاتحة جعلت أمرها وأمر الشعوب المفتوحة شيئا واحدا .

لقد لابس العرب ، بعد الفتح الاسلامى ، أمم الأرض بالمصاهرة والمتاجرة والحكم وجميع ضروب التعاون المطلق فى كل جانب من جوانب الحياة ، وما كان هذا نصيب أمة أخرى من قبلهم ولا من بعدهم الى يوم الناس هذا .

فلا عجب ان رأينا الأمن فى عهودهم الراقية الزاهية قد عم ، حتى شاهد البر والبحر فى كل جهة من جهات العالم قوافل التجار ذاهبة آئبة بين الشرق والغرب ، وهى تحمل حاصلات الأمم ومصنوعاتها من قطر الى قطر طوال مواسم السنين ... وجموع الحجاج من أقاصى الأندلس الى حواشى الصين ، وهى تجيش بالحركة والنقلة فى طول البلاد وعرضها ، لتلتقى فى عراص البلد الحرام حول الكعبة على وحدة العقيدة ووحدة الهدف ، فى ظلال الأخوة الاسلامية العامة ... ورواد العلم ، وهم كالجيوش عدا ، يرحلون من بلادهم فى كل ناحية من الانبراطورية الاسلامية الى مراكز النشاط العلمى فيها كمكة والقاهرة وقرطبة ودمشق وبغداد وكبريات حواضر ماوراء النهر ، للتأدب والتعلم والتفقه والأخذ من أفواه العلماء ... والبرد السلمية والبرد الحربية ، وهى تربط أجزاء الانبراطورية العظمى بحمل الرسائل والأخبار من الشرق الى الغرب ومن الغرب الى الشرق برا وبحرا ، فى أوقات معينة ، وأنظمة دقيقة ، وسرعة عجيبة يسروها

بما أوجدوا من محطات للبريد تسمى السكك وهى مزودة بالخيل والراكبين على مسافات معينة ، كل ثلاثة أميال أو فرسخين ، بل كان بين المغرب والمشرق شبه تبادل دولى فى البريد ، فكان بريد الترك يصل الى برسجان الأعلى وهو حد الصين ، وكان بريد آسية الصغرى يواصل الرحلة الى القسطنطينية .

وهذا ونحوه مما لم نذكر من أسباب النشاط والحركة والاتصال ، قد أدى الى اتساع معارف المسلمين بالممالك والمسالك اتساعا لم تيسر مثله لليونان ولا للرومان ولا للفينيقيين ، وكانت هذه الأمم قبل العرب والاسلام أقدم تجار العالم ، وأكثرهم أسفارا ، وأغزرهم علما بالبلاد والمسالك ، ولكنها لم يتح لها ما أتيح للمسلمين : من امتداد النفوذ والانتشار فى أقطار المسكونة ، ووسائل الاختلاط التى أزالت الفوارق العنصرية أو كادت ، وأقامت مقامها وحدة العقيدة والاخاء الروحى أدت الى امتزاج الدماء .

على أن امتداد المسلمين هذا الامتداد الواسع فى العالم ، قد أثار فى علمائهم ورواديهم ورحاليهم الرغبة الشديدة فى الازدياد من التوسع فى المعرفة ، والطموح الى كشف المجهول والتفكير فيه والمغامرات من أجله .

*
* *

ولنعرض الآن بضرب من الايجاز لهذه النواحى الخطيرة يكشف بعض الشىء عن مبلغ أصالة هذا العلم عند المسلمين ، وقيام ماكتبوه فيه على تأملاتهم واختباراتهم ورحلاتهم ودراساتهم العملية فى تتبع أحوال الأقاليم والأمصار ، وهى الينبوع العظيم الذى استفاض معينه على أقلامهم فى التصوير الدقيق ، والوصف التشخيصى الممتاز للبلدان والمسالك ، وطبائع الشعوب ، وأحوال العالم على عهدهم الميمون :

كان اتساع حدود الامبراطورية الاسلامية العظمى ، وانتشار الدين الاسلامى والثقافة العربية الخالصة فيها ، من أكبر الدواعى الى نشاط هذه الرحلات والأسفار ، والدراسات العملية ، وامتلاء نفوس المسلمين على اختلاف طبقاتهم بحب الأسفار الى الأمصار ، وامتداد مطارح أنظارهم الى الآفاق البعيدة . وقد شمل هذا النشاط الخلفاء والملوك والأمراء ، فسما بهم عن أن يكونوا أحلاس القصور وقرناء الدعة فى ظلال الترف ونضرة النعيم ، وحملهم على قيادة الجيوش والسير فى البلاد وركوب الحزون والوهاد ، كالذى رأيناه من سيرة الرشيد والمأمون والمعتصم وغيرهم من الخلفاء العباسيين ومن سير كثير من الأمراء الأمويين من قبلهم ، حتى صار الشعراء يحلولهم أن يمدحوهم بذلك كما قال بعضهم يمدح المعتصم بالله العباسى :

تناولت أطراف البلاد بقدرة كأنك فيها تبتغى أثر الخضر !

وبهذه النزعة المغامرة الجبارة تعشق رجال الاسلام ، فى مختلف العهود ، الرحلة الى أطراف الدنيا ، وسارت جيوشهم الجرارة الى البلاد ، واخترقت قوافلهم التجارية أنحاء المعمورة برا وبحرا الى الصين شرقا ، والى بلاد الصقالبة أى الروسية حتى شواطىء البلطيق شمالا ، والى ساحل افريقية الشرقى الى مدغشقر جنوبا ، والى أرض السودان الشاسعة حتى شواطىء الأقيانوس الأتلنتيكى غربا • ونفذت بعوثهم ورحالوهم الى أبعد ما تسمو اليه الهمم من مجاهل الأرض ، لكشفها والاطلاع على أحوالها ، وهو أمر لم يتهيأ لغيرهم من الشعوب الفاتحة من قبل •

توغلوا فى افريقيـة ، ونفـذوا الى مجاهلها ، وشققوا قلب الصحراء فعبروها الى السـودان وغيرها ، ولم يجتز الرومان حد الصحراء الشمالى • وكانت رحلتهم الأولى الى هذه القارة العظيمة فى القرن الأول للهجرة رحلة الفتح ، فاستولوا على مصر وبرقة وليبية وطرابلس وتونس والقيروان ، وتوسعوا من بعـد فى الفتوحات حتى امتلكوا كل شواطئها الشمالية والشرقية والغربية ، وتوغلوا فى مجاهلها حوالى النيل والنيجر والكونغو والزونو وكفروريا ( الكفرة ) • وكان عرب عمان وحضرموت والشحر والبحرين أول من عرف طريق الهند من عهد سحيق ؛ وفى بدء الفتوحات الاسلامية اجتازت مراكبهم سواحل افريقية كلها ، وملكوا بلاد الصومال وجوبع وممبسة وزنجبار وموزنبيق وجزائر الكومور ، ولم تزل بقـايا العرب فى جزائر مدغشقر وفيليبين ، وأسـسوا فيها الممالك ، وأقاموا الحصون والقلاع • وكانت بلاد ملينده وممبسة ومقـدشو وثبة وسفالة وكلوا وبمبا وزنجبار وغيرها ، ممالك مستقلة زاهية عامرة ؛ وكان سلاطينها ، ذوى جاه وسطوة وصولة • ووسعـوا تجارتهم فى تلك البلاد ، فاتجروا بالذهب وريش النعـام والعـاج والبهارات والطيوب • وحقيقة الأمر أنه كان للعرب تجارة واسعة فى العصور الخالية فى افريقية كلها ، كما كان لهم فيها الملك والسلطان • وقد تيسر لهم من ذلك فيها ما لم يتيسر لغيرهم من الأمم • وانما ظل الأوربيون حتى القرن الثامن عشر عند سواحلها ، لاتطال أعناقهم الى ما وراءها ، حتى قدر لهم أن يقتحموها ، وليس من موضوعنا أن نعرض لتاريخ ما سى ضـاع هـذا الملك العظيم من يد العرب ، وكيفية استيلاء البرتغاليين عليه ، فلنضرب صفحا عنـه •

وتوغل المسلمون فى القارة الآسيـوية الى الصين ، فوطئوا أرضهـا ، وكانت فيها تجارات واسعة وجوال عربيـة عظيمة ، وكان الرومان قبلهم يتخيلون وجودها تخيـلا ، ولا يعرفون من أمرها شيئا •

ويؤخذ من أقوال المؤرخ الصينى « جين يون » (Chén Yüan) الأستاذ فى جامعة بكينغ (Peiking) أن أول وفد من الدولة الاسلامية الى الدولة الصينية أوفد سنة ٦٥١ م ، وكان ذلك في عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وأن تجار المسلمين ـ كما يقول المؤرخ الصينى الآخر « فواين جانغ » (Fu yéen Chang) ـ كانوا يقبضون على ناصية التجارة الدولية فى الشرق والغرب من أوائل القرن الثامن الى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى ، يتجرون بمتاجرهم من بحر عمان ، ويعبرون المحيط الهندى حتى يبلغوا مرافىء الصين التجارية « كانتون » حاضرة ولاية « كونغ تونغ » ( Kwangtung ) و « تسون جو » (Tsuan Chao) ميناء ولاية « فوكين » ( Fukien ) و « يانغ جو » ( Yang Chao ) ميناء ولاية « كيانغ سو » ( Kiangsu ) و « هانغ جو » ( Hang Chao ) و « منغ جو » (Ming Chao) ميناءى « جيكيانغ » ( Chekiang ) .

وقد وصل الاسلام الى الصين من البر ومن البحر ، والآثار الاسلامية فى « كانتون » و « تسون جو » و « هانغ جو » تدل دلالة واضحة على أنه وصل اليها بحرا من طريق الهند . وتدل كثرة المسلمين فى الصين الشمالية الغربية أيضا دلالة قاطعة على أنه وصل اليها برا من طريق ما وراء النهر ، والوصول الأول أقدم عهدا على ما يرى الكتاب الصينيون .

وكان تجار المسلمين وأصحاب الرحلات يسيرون الى الصين فى البحر ، فى رحل محفوفة بالأخطار ، فيتجهون بحذاء ساحل الهند ، أو يتجهون من مسقط الى ميناء كولام « كيلون الحالية » رأسا ، وذلك فى نحو شهر ، ثم يواصلون سيرهم جاعلين سرنديب الى شمالهم ، ويقصدون جزائر نيكوبار ، ومن ثم الى مدينة ركدا فى ملقا ، وهى على مسيرة شهرين من كيلون ، ومن هناك يقصدون جاوة وجزيرة ماهيت فى جزائر سندا ، ثم يسيرون خمسة عشر يوما حتى يصلوا الى كمبوديا ، ومنها الى كوشين شين والى الصين . وكان المسافر اذا وصل الى الصين عد ذلك عجبا . أما رجوعه الى بلاده ، فكان يعد كالمستحيل . فلا عجب أن تسمع أن الرجل كان يرتقى الى أعلى السارية ، فاذا رأى أول علامات أرض الوطن ، هتف : « رحم الله كل من قال : الله أكبر » ، فعند ذلك يجيبه جميع من فى المركب هاتفين « الله أكبر ! » ويهنىء بعضهم بعضا ، ويكون لما يكون قد هجم عليهم من السرور . ولكن العرب مع هذا الذى يرون ويسمعون من المخاطر ، كانوا لاينثنون عن اقتحام لجج البحار الى الصين ، فكانت رحلاتهم التجارية ذاهبة اليها آئبة منها ، وكان كثير من تجار المسلمين زاروا قصر امبراطور الصين فى

ومن هذه الصلات التى وجدت بين العرب والصينيين ، عرف العرب من الصينيين استخدام الحك ، وهو الابرة المغنطيسية أو البوصلة ( Bussola ) ، وخاصيتها أن يتجه طرفاها الى الشمال والى الجنوب . والمرجح الآن أن العرب قد أتحفوا العالم الأوربى بهذه الآلة النافعة ، فأخذها الافرنج عنهم فى عهد الحملة الصليبية الثانية .

وكان أهم رحلات الرحالين المسلمين الى الصين بعثة الخليفة العباسى الواثق بالله الى سد الاسكندر المشهور فى الثلث الأول من القرن الثالث الهجرى ، وكانت تتألف من خمسين رجلا ، ويرأسها سلام الترجمان . وقد سارت من « سر من رأى » متجهة نحو ارمينية فبلاد السرير والخزر والأرض المنتنة ، فاستغرقت رحلتها من خروجها الى رجوعها ثمانية عشر شهرا .

ورحلة ابن وهب القرشى فى سنة ٢٥٦ ، وهو من ولد هبار بن الأسود ، وكان من أرباب الثراء والجاه فى العراق .

ورحلة سليمان السيرافى ، وتعد من أهم الآثار العربية عن الرحلات البحرية فى المحيط الهندى وبحر الصين فى القرن التاسع الميلادى ، وربما كانت الأثر العربى الوحيد الذى يتحدث عن سواحل البحر الشرقى الكبير والطريق الملاحى اليها استنادا الى الخبرة الشخصية . وقد دون أخبار رحلته أبو زيد البلخى ، وزاد عليها ما نقله عن غيره وحدثه به السياح الذين احتلوا سواحل الصين .

ورحلة أبى دلف مسعر بن مهلهل الخزرجى ، وكان شاعرا أديبا رحالة ، اتصل بالأمير نصر بن أحمد السامانى ، وأوفده هذا الأمير الى الصين حول سنة ٣٣١ هـ ( ٩٤٣ م ) مع بعثة كان أحد الأمراء الصينيين أوفدها الى البلاط السامانى ، ليخطب ابنة أمير بخارى . وقد زار أبو دلف الهند وآخر مرفأ كانت تصل اليه السفن الاسلامية فى الصين .

وأهم هذه الرحلات ، ولعلها خاتمتها أيضا ، رحلة القاضى محمد بن ابراهيم المشهور بابن بطوطة الطنجى فى أوائل القرن الثامن الهجرى ، وهو أعظم الرحالين المسلمين قاطبة ، وأكثرهم طوافا فى الآفاق ، وأوفرهم نشاطا واستيعابا لأحوال الأمصار ، وما كتبه فى رحلته ( تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ) عن الصين والهند والروسية والسودان ومصر وفلسطين والعراق والحجاز ونجد وفارس وغيرها ، يعد غاية فى النفاسة والفائدة والامتاع . وقد قدرت المسافات التى قطعها فى أسفاره ، فى ثلاثين عاما ، بخمسة وسبعين ألف ميل . وهى مسافة لا يظن أن رحالة غيره قطعها قبل استخدام البخار فى وسائل السفر .

أما أوربة ، فقد عرف العرب معظم أصقاعها معرفة تامة ، وأقاموا لهم فيها ملكا امتد بقاء بعضه ثمان مئة عام . اقتحموها فى أواخر القرن الأول للهجرة من جنوبها الغربى ، فاستولوا على بلاد الأندلس ، ثم اخترقوا جبال البرانس ( البيرانة ) فنفذوا الى فرنسة ، واستصفوا مدن ساحلها الغربى ؛ ثم أوغلوا فى الداخل فبلغوا نهر اللوار ، واحتلوا تور وبواتييه ومقاطعة فرانش كونتى فى شرق فرنسة ، وبقى جانب كبير منها ميدانا لجيوشهم زمنا طويلا ؛ ثم تجاوزوا منها الى سافواى وبيمونت ومونتفرات وسويسرة ، واحتلوا أمنع الحصون من قلب أوربة ، وذلك من خليج سان ترويبس الى بحيرة كونستانزة ، ومن نهر الرون وجبل جورا الى سهول جبل فرات ولمباردية . وأبعدوا المغار فى جبال الألب ، وخضعت لهم معابرها على بيرانجة ، وفتحوا مرسيلية وجميع الساحل الى جنوة ، وغزوا رومة وصعدوا فى نهر الطيبر ، واستولوا على جزر البحر المتوسط : اقريطش وقبرس ورودس وصقلية ومالطة وغيرها ، وطرقوا أبواب القسطنطينية ، فى تأريخ حافل لا تفى به الأجلاد .

وهكذا عرف العرب هذه القارة العظيمة معرفة تجربة واختبار ، وقد استقرت أقدامهم فى أقاليمها مددا تختلف طولا وقصرا ، واطمأنوا الى العيش فى قلبها وأطرافها الغربية والجنوبية ، وتزوجوا من أجمل الفتيات فيها ، وحرثوا وزرعوا ، وصارت لهم فيها علاقات سياسية وعلاقات أخرى اقتصادية وتجارية خطيرة بالروسية والمجر وألمانية وفنلندة والسويد والنرويج وأيسلندة والجزر البريطانية ، وسارت سفائنهم التجارية الى سواحل بحر البلطيق وشواطىء المحيط الأطلسى . وتشير كتب الرحلات الى تردد التجار المسلمين الى جنوبى الروسية ، والى وصولهم الى أوربة الوسطى : يحملون السلع بين الأسواق المختلفة ، ويقومون بالرحلات الطويلة فى هذا الشأن . وبحسبنا أن نشير الى الكنوز الوافرة من النقود الاسلامية التى عثر عليها فى الروسية وفنلندة والسويد والنرويج وسويسرة وأيسلندة والجزر البريطانية ، وهى ترجع الى الفترة الواقعة بين نهاية القرن الأول وبداية القرن الخامس للهجرة .

وقد دعا ايفاد بعض أمراء المسلمين الرسل والسفراء ، الى رحلات طريفة الى الأصقاع الأوربية التى لم تطأها جيوش المسلمين . ومن ذلك ، البعثة البغدادية الى الفولغا فى الروسية ، فى مطلع القرن الرابع الهجرى ، وهى بعثة المقتدر بالله العباسى الى ألمس بن شلكى بلطوار ملك الصقالبة ، وقد سأله هذا الملك أن يبعث اليه من يفقهه فى الدين ، ويعرفه شعائر الاسلام ، ويبنى له مسجدا ، وينصب له منبرا ، ليقيم عليه الدعوة

اليه بعثة كان فيها أحمد بن فضلان ، وانفصلت البعثة من بغداد لاحدى عشرة ليلة خلت من صفر سنة ٣٠٩ هـ ( ٩٦١ م ) متجهة الى بخارى فخوارزم فبلاد البلغار حيث وصلت لاثنتى عشرة ليلة خلت من المحرم سنة ٣١٠ هـ . والبلغار تطلق عند العرب على بلاد الصقالبة ، وهم الروس ، وعلى الشعب نفسه ، وعلى عاصمتهم التى كانت تقع شرقى نهر الفولجا المسمى عند الجغرافيين الاسلاميين بـ ( اتل ) . وقد ضمن ابن فضلان رحلته هذه صورة رائعة لهذا الشعب وحضارته وعاداته وتجاراته ، وعرض للظواهر الطبيعية فى بلاده ، كقصر مابين مغيب الشمس ومطلعها هناك ، وتعذر تحديد أوقات الصلاة ، فكتب يقول ، وقد صلى مغرب أول ليلة باتها فى العاصمة : « ودخلت أنا وخياط كان للملك من أهل بغداد قبتى لنتحدث ، فتحدثنا بمقدار نصف ساعة ونحن ننتظر أذان العشاء ، فاذا بالأذان ، فخرجنا من القبة وقد طلع الفجر . فقلت للمؤذن : أى شىء أذنت ؟ قال : الفجر . قلت : فعشاء الأخيرة ؟ قال : نصليها مع المغرب . قلت : فالليل ؟ قال : كما ترى ، وقد كان أقصر من هذا ، وقد أخذ الآن فى الطول . وذكر أنه منذ شهر مانام الليل ، خوفا من أن تفوته صلاة الصبح .... » .

وقد زار بلاد البلغار ، بعد ابن فضلان ، رحالون وعلماء من المسلمين ، منهم عبدالله أبو حامد الأندلسى الغرناطى صاحب « تحفة الألباب ونخبة الاعجاب » ، وقد زار بلاد البلغار سنة ٥٣٠ هـ وصحبه قاضيها يعقوب بن النعمان ، وذكر أن هذا القاضى ألف كتابا فى تاريخها .

وأهم الرحالين المسلمين الذين ساحوا فى بلاد الروسية ، ابن بطوطة ، فقد أبحر من ثغر صنوب شمالى آسية الصغرى الى شبه جزيرة القرم ، وغادرها الى أزاق ، ومنها الى القوقاز حيث اتصل بالسلطان محمد أوزبك خان ، فأعانه بدليل أوفده معه ليوصله الى مدينة بلغار ، فلما بلغها أراد أن يجاوزها الى الشمال لزيارة أرض الظلمة ( أى سيبيريا وشمالى الروسية ) ، وبينها وبين مدينة بلغار أربعون يوما ، ولكنه أضرب عن ذلك ، وعلل عدوله بعظم المؤونة وقلة الجدوى ، وقال : « ان السفر اليها لايكون الا فى عجلات صغار تجرها كلاب كبار ، فان تلك المفازة فيها الجليد ، فلا تثبت قدم الآدمى ولا حافر الدابة فيها ... » ثم عاد الى أوزبك خان فى القوقاز ، وأتيح له أن يغادره الى القسطنطينية فى رفقة الخاتون بيلون زوجة هذا السلطان .

ومن رحلات المسلمين الى شمالى أوربة ، السفارة الأندلسية نحو سنة ٣٦٢ هـ الى أوتو الأكبر امبراطور الجرمان ، التى يرى بعض الباحثين أن من المحتمل أن بعض أعضائها كانوا مصدر ماكتبه زكريا بن محمد القزوينى فى كتابه « آثار البلاد وأخبار

العباد » عن بعض البلاد الألمانية .

وقد ذكر القزوينى فى هذا الكتاب بعض البلاد الفرنسية والألمانية والهولندية ، مثل ايطرخت Utrecht وأبولدة Fulda ومغانجة Mainiz وشلشويق Schleswig ، والمعروف عنه أنه اتصل بكثير من الرحالين ، وقرأ كتبهم ، وأفاد من مشاهداتهم ، كالملتانى والطرطوشى اللذين أتيح لهما رؤية بعض المدن فى فرنسة وأوربة الوسطى .

ويعد ( الادريسى ) أهم من عرف أوربة الغربية والشمالية من الجغرافيين الاسلاميين ، وقد عنى الأخوان الفنلنديان تل غرين ـ توليو ، و آ . م . تال غرين بتعيين كل ما أتى به فى « خارطته » من أسماء وطنهما وبيان أهميتها ، ورسماها فى « خارطة » فنلندة العصرية بغاية الاتقان ، وألفا من ذلك رسالة فى ١٥٤ صفحة نشراها باسم : Studia Orientalita III. Idrisi: La Finlande et les autres Pays Baltiques orientaux (١)

ولم تقف همم رواد المسلمين عند هذا الحد من ارتياد المعمورة حسب ، بل تجاوزوه الى البحث عن عوالم جديدة ، وفكروا فيما عسى أن يكون فى المحيط الأتلنتيكى أو وراءه من مجاهل الأرض . وكان العرب قد اتخذوا الأساطيل فيه للدفاع عن ملكهم فى الأندلس والمغرب ، ومارس فتيانهم ورجالهم البحار ، وألفوا أهواله ، ثم خرجوا من حيز هذا التفكير الى حيز التنفيذ ، وحاولوا التوغل فى الأتلنتيك . ومما يشهد بذلك هذا الحديث الرائع الذى رواه ( الادريسى )(٢) عن الفتية الثمانية المغررين أو المغربين ، من مدينة لشبونة عاصمة البرتغال ، كلهم أبناء عم ، اتفقوا حوالى القرن الرابع الهجرى على القيام فى الأتلنتيك بمغامرة جريئة « ليعرفوا ما فيه ، والى أين انتهاؤه ، فأنشأوا مركبا حمالا ، وأدخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر . ثم دخلوا البحر فى أول طاروس(٣) الريح الشرقية ، فجروا بها نحوا من أحد عشر يوما ، فوصلوا الى بحر غليظ الموج كدر الروائح كثير التروش(٤) قليل الضوء ، فأيقنوا بالتلف ، فردوا قلاعهم فى اليد الأخرى ، وجروا مع البحر فى ناحية الجنوب اثنى عشر يوما ، فخرجوا الى جزيرة الغنم ، وفيها من الغنم ما لا يأخذه عد ولا تحصيل ، وهى سارحة لا راعى لها ولا ناظر اليها ، فقصدوا الجزيرة فنزلوا بها ، فوجدوا بها عين ماء

(١) يوحنا آهتيتن كارسيكو .

(٢) « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » ورقة ١٩٢ و ١٩٣ من نسخة المجمع العلمى العراقى المصورة عن نسخة « باريس » .

(٣) طاروس الريح : هبوبها .

(٤) التروش : الصخور التى لايكاد يسترها الماء .

جارية وشجرة تين يرى عليها ، فأخذوا من تلك الغنم فذبحوها ، فوجدوا لحومها مرة لايقدر أحد على أكلها ، فأخذوا من جلودها ، وساروا مع الجنوب اثنى عشر يوما ، الى أن لاحت لهم جزيرة ، فنظروا فيها الى عمارة وحرث ، فقصدوا اليها ليروا ما فيها . فما كان غير بعيد حتى أحيط بهم فى زوارق هناك ، فأخذوا وحملوا فى مركبهم الى مدينة على ضفة البحر فأنزلوا بها فى دار ، فرأوا فيها رجالا شقرا زعرا ، شعور رؤوسهم سبطة ، وهم طوال القدود ، ولنسائهم جمال عجيب . فاعتقلوا فيها فى بيت ثلاثة أيام . ثم دخل عليهم فى اليوم الرابع رجل يتكلم باللسان العربى ، ثم سألهم عن حالهم ، وفيم جاؤوا ، وأين بلدهم ؟ فأخبروه بكل خبرهم ، فوعدهم خيرا ، وأعلمهم أنه ترجمان الملك . فلما كان فى اليوم الثانى من ذلك اليوم أحضروا بين يدى الملك ، فسألهم عما سألهم الترجمان عنه ، فأخبروه بما أخبروا به الترجمان بالأمس من أنهم اقتحموا البحر ؛ ليروا ما به من الأخبار والعجائب ، ويقفوا على نهايته . فلما علم الملك ذلك ، ضحك ، وقال للترجمان : « أخبر القوم أن أبى أمر قوما من عبيده بركوب هذا البحر ، وأنهم جروا فى عرضه شهرا ، الى أن انقطع عنهم الضوء وانصرفوا من غير حاجة ولا فائدة تجدى . » ثم أمر الملك الترجمان أن يعد القوم خيرا ، وأن يحسن ظنهم بالملك . ففعل . ثم انصرفوا الى موضع حبسهم الى أن بدأ جرى الريح الغربية ، فعمر بهم زورق ، وعصبت أعينهم ، وجرى بهم فى البحر برهة من الدهر . قال القوم : « قدرنا أنه جرى بنا ثلاثة أيام بلياليها ، حتى جيء بنا الى البر . فأخرجنا وكتفنا الى خلف ، وتركنا بالساحل الى أن تضاحى النهار وطلعت الشمس ونحن فى ضنك وسوء حال من شدة الكتاف ، حتى سمعنا ضوضاء وأصوات ناس ، فصحنا بجملتنا ، فأقبل القوم الينا ، فوجدونا بتلك الحال السيئة ، فحلونا من وثاقنا ، وسألونا فأخبرناهم بخبرنا ، وكانوا بربرا ، فقال لنا أحدهم : كم بينكم وبين بلدكم ؟ قلنا : لا نعلم . فقال : ان بينكم وبين بلدكم مسيرة شهرين . فقال زعيم القوم : واأسفى ! فسمى المكان الى اليوم « أسفى » . وهو « المرسى الذى فى أقصى المغرب » على قول الادريسى .

وواضح من سياق الحديث أن هؤلاء قد استطاعوا العودة الى لشبونة ، وحدثوا الناس بأخبار مغامرتهم . وقد شهر خبرهم واستفاض على الألسنة ، وكانت رحلتهم من أجل كشف العوالم المجهولة فى الأتلنتيك مثار الاعجاب ، فما لبث أهل وطنهم أن نعتوهم بالمغررين أو المغربين ، وأطلقوا هذا النعت على الشارع الذى كانوا يسكنونه ، اعترافا بفضلهم ، وتمجيدا لذكراهم . قال الادريسى : « ولهم بمدينة لشبونة بموضع

بمقربة الحمة درب منسوب اليهم يعرف بدرب المغربين الى آخر الأبد » .

وقد ظلت فكرة كشف ما وراء الأتلنتيك تساور أذهان علماء المسلمين بعد ذلك ، فتخيلوا فى بحوثهم العلمية وجود أمريكا قبل كشف كرستوف كولب لها بقرن ونصف قرن ، وقال أبو الثناء محمود بن أبى القاسم الأصفهانى[1] : « لا أمنع أن يكون ما انكشف عنه الماء من الأرض من جهتنا ، منكشفا من الجهة الأخرى . واذا لم أمنع أن يكون منكشفا من تلك الجهة ، لا أمنع أن يكون به من الحيوان والنبات والمعادن مثل ما عندنا ، أو من أنواع وأجناس أخرى » .

فـ « للاصفهانى وهو بمصر ـ كما قال بعض الباحثين[2] تعليقا على هذا الاستدلال العقلى الناضج ـ فضل السبق على كرستوف كولب وهو بالأندلس ؛ لأنه قال بهذه النظرية قبله بقرن ونصف قرن . وللأصفهانى فضل أكبر على مكتشف أمريكا : لأنه تخيل وجودها بقوة الفطنة والاستدلال . وأما كولب فتخيل فقط وجود طريق جديد يوصل للهند من جهة الغرب . توفى أبو الثناء فى سنة ٧٤٩ هـ ( ١٣٤٨ م ) ، وأما كولب فقد اجتهد فى اقناع فرديناند وايزابلا صاحبى الأندلس بصدق نظريته فى سنة ١٤٩٢ م ( الموافقة لسنة ٨٩٨ هـ ) . » .

على أن من علماء أوربة من رجع فضل كشف كولب لأمريكا الى عاملين عربيين : ارتقاء علم الجغرافيا عند العرب ، وعقول العرب وموادهم ورجالهم . فقال جوتيه[3] : « من دار حول افريقية ؟ فاسكودى غاما . ومن كشف أمريكا ؟ كرستوف كولب . ومن السهل أن يدرك أن هذين الكشفين اللذين فاقا جميع ما تقدمهما ، قد تما على أيدى بحارة من العرب ، وكان تحقيقهما متعذرا بدون ارتقاء علم الجغرافيا عند العرب . وتم هذان الكشفان العظيمان بعقول العرب وموادهم ورجالهم تحت امرة النصارى » .

وبعد ، فان الاسترسال فى تفاصيل الدراسات العملية التى قام بها رواد المسلمين وجغرافيوهم يخرج بى ، اذا أرته ، الى مؤلف ضخم . وأنا انما أردت توضيح ملامح الأصالة فى معارفهم الجغرافية بما اكتسبوه بالاضطرار ، وأن ماكتبوه فى جغرافيا بلادهم أو جغرافيا العالم ـ منذ البداية بالتدوين ـ كان كله من دراستهم العملية ، ومن مشاهداتهم رأى العين فى أسفارهم البرية والبحرية فى آماد طوال ، لم يسبقهم أحد الى وصفها ، وقلما نقلوا من غيرهم أو أفادوا فى عهد الترجمة شيئا ذا غناء فى هذا الباب كما سأزيده توضيحا وتدليلا .

(١) نقله العمرى فى مسالك الأبصار ( ج ١ ) . (٢) أحمد زكى باشا .
(٣) نقله صاحب الاسلام والحضارة العربية ( ٢/٢١١ ) .

قال ملطبرون : « ان المسلمين جازوا حدود الأرض المعروفة ، وتوغلوا فى آسية وافريقية ، وان الخلفاء فى صدر الاسلام أمروا جيوشهم وعمالهم أن يرسموا خطط البلاد التى افتتحوها واستولوا عليها » .

*
* *

كان اتساع المسلمين فى تدوين جغرافيا العالم يضارع اتساعهم فى الفتوحات ، ويربى عليه كما سمعتم قريبا . فكأن عظمة التأليف فى هذا العلم ، التى انفردوا بها بين أمم الحضارات الغابرة ، هى من لوازم عظمة الفتوحات وعظمة الأمة فى السلطان واستحجارها فى العمران .

فلما زايلتهم تلك العظمة بالانقسامات والحروب والفتن وانتشار الجهل والخراب ، وأضاعوا ملكهم ، وشمل الخراب أوطانهم وديارهم ، وعادوا الى الصحراء وحواشى الجزيرة ، وقبعوا فى زوايا الحواضر والقرى : يسومهم الاستبداد سوء العذاب .... تضاءل عندهم هذا العلم كما تضاءل شأن غيره من العلوم والفنون والآداب ، ولم يبق الداعية اليه متوافرة كما كانت أزمان عزهم وسلطانهم وعظمتهم ، الا ما كان يسلكه أفراد من علمائهم فى التأليف من طرق الجمع والنقل عن السابقين ، وقلما أتوا بشىء جديد ، خلا ما نجد فى كتب الرحلات من أوصاف .

وهكذا عظم شأن هذا العلم حينا ، وصغر حينا آخر ، وذلك بمقدار ما كان يساوره من الهمم قوة واقتدارا ، أو قوة وفتورا ، وقديما قال شاعر العرب : « على قدر أهل العزم تأتى العزائم ! » .

بدأ العرب بوضع تقويم البلدان قبل أن يبدأوا بترجمة كتب اليونان ، اذ كانت الداعية اليها متوافرة ، وعلمهم بالممالك والمسالك كانوا قد حذقوه بالأسفار ، وأنفدوا أعمارهم فى تحصيله بالدرس والاختبار . فوضع أئمة الأدب واللغة ورواد الأخبار والأشعار تصانيف فيه ضمنوها ذكر البوادى والقفار والمنازل والمناهل والجبال والأماكن العربية الواردة فى أشعار العرب وأخبارهم . ولا شك فى أن هذا الضرب من كتب تقويم البلدان عربى خالص ، تفردوا بوضعه ، وتنزه من شوائب الاحتذاء والاقتباس ؟ لأنهم انما وصفوا فيها مواطن هم أهلها ، وعينوا مواضع هم روادها ، و « أهل مكة أدرى بشعابها ! » .

ومن أقدم من انتصبوا للتأليف فى تقويم البلدان العربية من علماء العرب ، النضر بن شميل من أئمة اللغة والنحو والأدب ، أقام فى البادية ، وأخذ عن فصحاء

العرب كأبى خيرة الأعرابى وأبى الدقيش وغيرهما • ألف كتاب الصفات فى خمسة أجزاء ضمنها أشياء مختلفة ، وقصر جزءا منها على « الأخبية والبيوت وصفة الجبال والشعاب » ، وهو فيما يلوح لى باللغة أشبه ، ولكن عده بعض الباحثين من كتب تقويم البلدان ، وقال : « انه موجود فى بعض المكتبات العربية » ، فلعله رآه وقرأه فقال فى وصفه ما قال •

ومنهم هشام بن محمد الكلبى ( المتوفى سنة ٢٠٤ أو ٢٠٦ هـ ) • ألف كتاب البلدان الكبير ، وكتاب البلدان الصغير ، وكتاب الأقاليم ، وكتاب الأنهار •

وعبدالملك بن قريب الأصمعى ( المتوفى سنة ٢١٤ هـ ) • ألف كتاب جزيرة العرب ، وذكر ياقوت فى مقدمة معجم البلدان[1] : أنه « ظفر بكتابه رواية لابن دريد عن عبدالرحمان عن عمه » ، ولم يسمه ، ولكنه سلكه فى الكتب التى قصد فيها ذكر الأماكن العربية والمنازل البدوية • وكان الأصمعى من حفاظ اللغة والأدب • عاصر الرشيد ، وقدم بغداد فى أيامه مع أبى عبيدة ، ثم عاد الى البصرة • ولما تولى المأمون ، استقدمه اليه ، فاعتذر بضعفه وشيخوخته ، فكان يجمع المشكل من المسائل ويسيرها اليه ، فيجيب عنها •

وجاء بعد هؤلاء كثيرون سلكوا مسلكهم فى التأليف كأبى عبيدة السكونى ، والحسن بن أحمد الهمدانى فى كتاب جزيرة العرب ، وأبى الأشعث الكندى فى جبال تهامة ، وأبى سعيد السيرافى ، وله كتاب فى جزيرة العرب ، وأبى محمد الأسود الغندجانى وله كتاب مياه العرب ، وأبى زياد الكلابى ، ومحمد بن ادريس بن أبى حفصة وله كتاب مناهل العرب ، وأبى على الحسن بن عبدالله المعروف بلغدة وله كتاب فى ديار الجزيرة العربية ومناهلها ومعادنها ، وهو فى غاية الافادة والامتاع ، ومنه نسخة مخطوطة فى خزانة كتب المجمع العلمى العراقى • وهؤلاء وغيرهم ممن لم نذكر ، كلهم أو أكثرهم عولوا فى كتبهم على المشاهدة لا الرواية أو النقل •

ونستطيع أن نسمى ماكتبوه فى هذا الباب بالجغرافيا الخاصة ، لأنه اختص ببقاع معينة ، هى بقاع الجزيرة العربية : باديتها وحاضرتها •

ثم خطا التأليف الجغرافى عند المسلمين خطوته العالية ، فطفق الجغرافيون فى القرن الثالث الهجرى وما بعده يؤلفون فى تقويم البلدان ، ويصفون أجزاء امبراطوريتهم وما يجاورها من الأقاليم وصفا علميا منظما قائما على المشاهدة والدراسة العملية ،

فعينوا حدود الأرض وتقاسيم الممالك ، ووصفوا البلدان وملامحها الخاصة والمسالك والجبال والبحار والأنهار والمعادن والآثار ، وضبطوا المسافات بين الأمصار بحساب الأميال ضبطا دقيقا كل الدقة ، وأحصوا مقادير الجبايات ومبالغ الخراج ، ودونوا الى جانب ذلك أخبار الفتح ، وشرحوا أحوال الشعوب والأجناس وأكلهم وشربهم ولباسهم وتجاراتهم وصادراتهم ووارداتهم وما يمتاز به كل شعب من الخصائص النفسية والبدنية والاجتماعية والعلمية والأدبية ، الى غير ذلك مما أوفوا به على الغاية من الاستقصاء والاستيعاب والتحقيق والتدقيق ، واشتملت مؤلفاتهم على وثائق عظيمة الشأن فى تأريخ الانسانية وحقائق بليغة الأثر فى نماء ضروب المعرفة لا مندوحة لكل باحث – فى التأريخ التجارى أو التأريخ الاقتصادى أو نظام السياسة والحكم فى الشعوب الاسلامية والأمم التى اتصلت بها – من الوقوف عليها والاستنارة بها ؛ والا كانت بحوثهم خالية الوفاض ، بادية الانفاض ، تعوزها المادة والحيوية والقوة •

كان عمل هؤلاء المؤلفين فى الجغرافيا العامة امتدادا لعمل المؤلفين فى الجغرافيا الخاصة الذين مهدوا السبيل فى التأليف الجغرافى عند المسلمين ابتداء وابتداعا ، لا نقلا ولا محاكاة لأمة من الأمم •

وقد قضى بهذا الامتداد اتساع رقعة الانبراطورية الاسلامية ، ووجوب حمايتها ، وما يتعين على الدولة من احصاء جبايتها وخراجها ، وتيسير طرق البريد ، وتحديد المسالك وأبعادها وجهاتها للسفارة والتجارة والجيوش • فلم يكن بد لعلماء الملة من التأليف فى هذا الباب ، والتوسع فيه مسايرة للحاجة ، وهو عمل لا يتيسر امتلاك ناصيته الا بالرحلات والكشف والدراسات العملية ؛ لذلك كان الجغرافيون الذين نبغوا فى القرنين الثالث والرابع للهجرة وفى قرون أخرى أيضا ، كلهم ممن تمرسوا بالأسفار ، وركبوا البحار وجابوا الأقطار شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، أمثال أبى القاسم بن أحمد بن خرداذبه مؤلف كتاب الممالك والمسالك ، وأحمد بن أبى يعقوب بن واضح المعروف باليعقوبى مؤلف كتاب البلدان ، وأبى اسحاق الاصطخرى الكرخى مؤلف كتاب الأقاليم ، وأبى القاسم محمد بن حوقل البغدادى مؤلف كتاب صورة الأرض أو المسالك والممالك ، وأبى عبدالله محمد بن البشارى المقدسى مؤلف أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، وعلى بن الحسين بن على المسعودى من ذرية عبدالله بن مسعود الصحابى الجليل مؤلف أخبار الزمان ومروج الذهب والأوسط والتنبيه والاشراف ، وغيرهم •

ثم من جاء بعدهم فى القرون التالية واعتمدوا فى تآليفهم الجغرافية على منهلين : كتب من سبقهم ممن ذكرنا ولم نذكر ، وأسفارهم ودراساتهم العملية ، وهم كالشريف

محمد بن محمد الادريسى مؤلف « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » الذى فزع اليه روجر الثانى النورمندى ملك صقلية وجنوبى ايطالية لرسم « الخارطة » العالمية وتدوين شروحها ، وسنخصه ببحث مستفيض ، وعلى بن أبى بكر بن على الهروى الموصلى الذى قال عنه ابن خلكان : « لم يترك برا وبحرا ولا سهلا ولا جبلا من الأماكن التى يمكن قصدها ورؤيتها الا رآه ، ولم يصل الى موضع الا كتب خطه فى حائطه ، وقد سار ذكره بذلك حتى عرف باسم الهروى السائح » ، وهو مؤلف كتاب « منازل الأرض ذات الطول والعرض » ؛ وياقوت الحموى البغدادى المؤلف الجغرافى العظيم الذى يأتى فى مقدمة كتبه كتابه الرائع معجم البلدان ، الممتاز بترتيبه على حروف الهجاء وبدقته واتساعه وجمعه بين الجغرافيا والتاريخ والعلم والأدب ، وقد حاز هذا الكتاب اعجاب كبار المستشرقين حتى قال فيه المستشرق الفرنسى المشهور « كارا دى فو »( Carra de Vaue ) فى كتابه[1] ( Le Penseurs L'Islam ): « انه من المؤلفات التى يحق للاسلام أن يفخر بها كل الفخر » . وضع ياقوت معجمه الجغرافى العظيم هذا ، ولم يكن للجغرافيين الأوربيين معجم جغرافى على نمطه ، انما كان أول مصنف لهم من نوعه فى منتصف المئة السادسة عشرة ، وضعه أورتليوس البلجى ، وطبعه فى أنورس سنة ١٥٧٨ م ، وكان ياقوت فرغ من معجمه فى سنة ٦٢١ هـ ( ١٢٢٤ م ) .

الى غير هؤلاء العظماء الذين ألفوا فى الجغرافيا العامة ، وتوافر النص على أن ما كتبوه فى هذا الباب هو من مشاهداتهم ، أو من مشاهداتهم ومن النقل عمن سبقوهم معا .

*
* *

بعد هذه الافاضة فيما قدمت لكم من مجهود الجغرافيين الاسلاميين الضخم العظيم فى الدراسات الجغرافية العملية فى عصور عدة ، أستطيع أن أقرر جازما فى غير تردد أن الجغرافيا عند المسلمين انما هى من صنع أنفسهم ، ووليدة بحوثهم ، ونتاج نهضتهم السياسية الاجتماعية العمرانية العالمية ، وأنهم لم يكونوا فيها حميلة على الرومان أو اليونان أو السريان كما أقرته التعاليم المريضة فى أذهان من لا سبيل لهم الى التعمق والتأمل فى تراث العرب ومدنية الاسلام : من نشأ هذه الأزمان ، الذين حيل بينهم وبين ما يجب أن يفقهوه من عبقريات قومهم فى مختلف الشؤون ، ثم ملئت أذهانهم عنهم ، ملأ هـ « موتورو الشعوب وتجار العقائد وورات الأحقاد » ، بكل زور من القول ، وبهتان من

التلفيق ، وضلال من الأحكام »

نعم ، لقد ترجم المسلمون فى عصر المأمون من اليونانية كتب أفلاطن وفيثاغورس وبطلميوس فى الجغرافيا والعمران ، واطلع علماؤهم على هذه الكتب ، واتصلوا بآرائهم فيها وفى المجسطى وغيرهما ، ولكن ما انتهى اليهم من هذه الكتب اليونانية كان لا يطابق أكثر ما فيها ما كانت عليه الدنيا فى أيامهم ، اذ كانت معالم البلدان وأحوال الناس خاضعة للتغير والتبدل كلما تطاولت عليها العهود ، فلم يعتمدوها لانبهام أمرها عليهم ، وقد قال ياقوت ، وهو أعظم جغرافى اسلامى اعتمد على رحلاته ودراساته : « ... وقد وقفت لهم منها على تصانيف عدة جهلت أكثر الأماكن التى ذكرت فيها ، وأبهم علينا أمرها ، وعدمت ( فائدتها ) لتطاول الزمان فلا تعرف » ، وقال يوحنا آهتيتن كارسيكو الفنلندى ، وهو يوازن بين خارطة بطلميوس وخارطة الادريسى ، وبينهما ألف عام : « وقعت قبل هذه الخارطة بألف سنة محاولة وضع خارطة عامة باللغة اليونانية للأرضين المعروفة فى تلك العصور ، وقد رسمها بطلميوس بمصر ، الا أن خارطة هذا العالم الكبير لم تكن وافية ؛ لأنه ذكر فى خارطته نحو ثمانية آلاف من أسامى الأمكنة ، والى الآن لم يتمكن أهل العلم الا من تعيين أقل قليل مما ذكر فى خارطته . أما هذه « الخارطة » ( خارطة الادريسى ) ، فكل ما ذكر فيها من الأسماء والأمكنة ترد اليوم فى خوارطنا العصرية ، وهى معلومة لنا بأعيانها من غير التباس ، فحق لنا أن نعد هذه الخارطة خارطة عالمية بالمعنى الذى نعرفه اليوم من هذا اللفظ ! » .

ومعنى هذا أن الجغرافيين الاسلاميين قد بدأوا عهدا جديدا لتدوين علم الجغرافيا العامة بما كتبوه فى هذا الشأن وحققوه ، ولا يزال ما تركوه من التراث الضخم فى مكان الاحترام والتقدير والاستفادة . وبحسبهم ذلك فخرا ، تعلو به الجباه ، ويدعو هذه الأجيال الناشئة الى استئناف سيرتهم العلمية العملية وتجديدها .

وقد قال أدورد ستيفنصن الأميركى : « بينما كانت المسيحية قانعة باستقاء معلوماتها الجغرافية من موارد منحطة ، كانت الشعوب العربية تنمى معارفها وتنشر معلوماتها الجغرافية الفلكية ، وكان العرب يعملون الى درجة ما طبقا للقواعد اليونانية ، ولكنهم شيدوا على هذه القواعد صرح أبحاثهم المستقل الخاص بهم » .

وأقول : ما أشار اليه أدورد ستيفنصن « من عمل العرب الى درجة ما طبقا للقواعد اليونانية » ، لم يكن فى غير الشكل الذى أخذه بعض الجغرافيين الاسلاميين فى القرن الثالث ، اذ سلكوا فى تأليفهم قريبا من طريقة بطلميوس فى تقسيم العالم الى سبعة أقاليم تتضمن ذكر البلاد ، وتعيين مسافة الطرق والمسالك ، كما فعل ابن خرداذبه ومن حذا

حذوه . أما الجوهر الذى احتوته كتبهم ، فكان عربيا اسلاميا محضا كما قدمت البراهين عليه ، وأثبت أن كل ما كتبوه كان من مشاهداتهم واختباراتهم وتحقيقاتهم فى الرحلات العظيمة التى اضطلعوا بأعبائها جيلا بعد جيل ، فأربوا على ما عرفه غيرهم من قبل ، وأتوا بالجديد الطريف ، وصححوا مغالط اليونان ، حتى استوى لهم من ذلك كله علم مستقل خاص بهم منفرد بأصوله وخصائصه وملامحه المنسجمة مع الحياة التى عاصروها والآفاق الواسعه التى انبسطت لهم من العالم وارتادوها وكشفوها فى كل ناحية وكل زمان .

على أن البـحاثة ستيفنصن الأميركى يرى أن « اليونان وضعوا علما نوصف الكون مبنيا على التخيل مثل الشعوب التى سبقتهم . » وقد سما الجغرافيون الاسلاميون على ذلك ، وأمعنوا فى الحقائق وفى المغامرات من أجل كشف المجهول .

وقـد أجمع البـاحثون والمحققون على أن بطلميوس الذى وصـل كتابه الى يد العرب ، انما انتحـل فى كتابه ـ كما اعترف هو نفسه ـ جغرافيا مارينوس الصورى من أهل القرن الثانى قبل المسيح ، وأن غاية ما فعله مارينوس أنه نقل من كتب السلف فى علم الجغرافيا ، وجمع أخبارا نقلها عن البحارة وأهل الرحلات ، فألف منها كتابا فى الجغرافيا أضاف اليـه خوارط رسم فيها خطوط الطول والعرض ، ويقـال : ان غاية ما فعله بطلميوس تنقيح هذا الكتاب ، وقد أخطأ فى التنقيح قدر ما أصاب .

وقد سمعتم ما قدمت من رأى آهتيتن كارسيكو الفنلندى فى انعدام الفائدة من خارطة بطلميوس لعجز أهل العلم عن تعيين أقل قليل مما ذكر فيها ، بخلاف خارطة الجغرافى الاسـلامى الادريسى التى اعتدها خارطة عالمية بالمعنى الذى نعرفه اليوم من هذا اللفظ .

*
**

ذلكم تراث الجغرافيين اليونان ، وهـذا تراث الجغرافيين الاسلاميين . وبحسب المنصف أن يصدر فى ضـوء ما قدمت حكمه ، كما أصـدره كارسيكو فى موازنته بين بطلميوس والادريسى ، وهما يمثلان طرفين أو أمتين عنيتا بهذا الشأن ، فقضى على تراث اليونان بالعقم ، وعلى تراث المسلمين بالخلود . واذا شاء أصحاب التعاليم المريضـة أن يتغافلوا عن هذه البينات والدلائل ليتهمونى بالتحيز والعصبية ، فلن يستطيعوا أن يتهموا بهما « جوتيه » و « ستيفنصن » و « كارسيكو » وغيرهم من المستشرقين المحققين .

محمد بهجة الأثري